﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٥٢﴾ [آل عمران: 152]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ربـط وعـد الله بإلقاء الرّعب في قلوب الكافرين، بصدق وعده في تثبيت المؤمنين

لـمَّا تضمّنَتِ الآيةُ السّابقة وعدَ اللّه تعالى، بإلقاء الرّعب في قلوب الكافرين يوم أُحد، ذكَّرَ اللّه تعالى أصحاب النّبيّ ﷺ، بأنّه قد صدَقَهم وعده بالنّصر على العدوِّ، بشرط التّقوى والصّبر؛ إذ كانَت لهم الغلَبة على الكافرين يوم أُحد، في أوّل الأمر، قبل أن يحصل منهم التّنازع وعصيان الأمر النّبويّ، بترك الرُّماة لأماكنهم بعد رؤيتهم الغنائم، وهو ما أدّى إلى تحوّل الحرب لصالح الكفّار، ورجحان كِفَّتهم، وفي ذلك ابتلاءٌ للمؤمنين، واختبارٌ لثباتهم على الإيمان، ثمّ ذكَر تعالى أنّه تفضَّل بالعفو عمَّا وقع منهم يومها، لِمَا عَلِم من ندمِهم على المخالَفة[1]، فعفا عنكم، واللّه ذو فضل على المؤمنين[2]، يؤيّدهم بنصره، ويشملهم بعفوه، وذلك منتهى رحمته وفضله.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَحُسُّونَهُم﴾: من حسّ، ولهما أَصْلَانِ: فَالْأَوَّلُ غَلَبَةُ الشَّيْءِ بِقَتْلٍ أَوْ غَيْرِهِ، وَالثَّانِي حِكَايَةُ صَوْتٍ عِنْدَ تَوَجُّعٍ وَشَبَهِهِ[3]، أو هو منَ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/42، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 5/92.
(2) نخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 69.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حسّ).

الحاسَّة، أي: القوَّة الّتي تُدرك بها الأشياء الحسّيّة[1]، فمعنى ﴿تَحُسُّونَهُم﴾ في الآية: تقتلونهم قتلًا ذريعًا، أو تستأصلونهم قتلًا[2]، ومنه قِيل للقتيل: الحسيس، وقولهم: جراد محسوس إذا قتله البرد، وسنة حَسُوس إذا أتَت على كلّ شيءٍ، ويؤخذ معنى القتل على القول، بأنّه منَ الحاسَّة من قولهم: حسَستُه، مثلَ: كَبَدْتُهُ وفَأَدْتُهُ إذا أصبتُ كبدَه وفؤادَه، فيكون معناه: قتلتُه بإبطال حاسَّته[3]، "والحسيس القتيل، ومنه جراد محسوس، إذا طبخ، وقولهم البرد للنّبت وانحسّت أسنانه انفعال منه، فأمّا حسست فنحو علمت وفهمت، لكن لا يقال ذلك إلّا فيما كان من جهة الحاسّة[4].

2) ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾: الإذن: التّمكين مع العلم بالممكَّن منه[5]، ومعناه هنا: بتقدير اللّه وتيسيره للأسباب، وقِيل: بعلمه[6]، والمراد بإذنه: أمره ومشيئته، وقوله ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ متعلّق بمحذوف، لأنّه حال من فاعل ﴿تَحُسُّونَهُم﴾، أي تقتلونهم مأذونا لكم في ذلك[7]، وقيل: "بإذنه لكم في قتالهم وبإعانته لكم على ذلك"[8].

3) ﴿فَشِلْتُمْ﴾: فعل ماضٍ منَ الفشَل، وهو: الضّعف مع الجُبن، وقِيل: الفزع والجُبن والضّعف[9]، فمعنى ﴿فَشِلْتُمْ﴾: جبُنتم وتخاذلتُم، وقِيل: المُراد بالفشل هوَ الوهَن والإعياء، وقِيل: استشعار العجز، وترك الجِدِّ[10]، يقال: رَجُلٌ فَشْلٌ وفَشَلٌ، وقد فَشِلَ يَفْشَل عند الحرب والشّدّة ويضعف، وإنّه لَخَشِلٌ فَشِلٌ، والفَشِلُ: الجبان المرعوب، يبهت عند الرّوع، لا يحسن قتالًا ولا شرادًا، أي: هربًا[11].

4) ﴿وَتَنَٰزَعْتُمْ﴾: فعل ماضٍ منَ التّنازُع، وهو: تجاذُب الحُجَج فيما يختلف فيه

(1) الرّاغب، المفردات: (حسّ).
(2) الزّجّاج، معاني القرآن: 1/478.
(3) مكّيّ، الهداية: 2/1152، والمهدويّ، التّحصيل: 2/136، وأبو حيّان: البحر المحيط: 3/359.
(4) الأبياري، الموسوعة القرآنيّة: 8/130.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/524.
(6) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/386، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/127.
(7) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 2/297.
(8) الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 1/392.
(9) ابن منظور، لسان العرب: (فشل).
(10) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/427، وابن عطية، المحرر الوجيز: 1/524، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/128.
(11) الخليل، العين: (فشل).

الخصمان، والمُراد به: اختلاف الصّحابة يوم أُحد، وقول بعضهم: نأخذ الغنائم، وقول الآخرين: بل نثبُت كما أمرنا النّبيّ ﷺ، وأصل النّزع هو قلعُ الشّيءِ، ونزعتُ الشّيءَ، أي: جذبتُه من مقرِّه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [الأعراف: 43][1].

5) ﴿صَرَفَكُمْ﴾: فعل ماضٍ منَ الصَّرف، وهو رد الشّيء عن وجهه، ومعنى ﴿صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾: كفَّكم عنهم، فغلبوكم بعد أن كنتمُ الغالبين[2]، فقال لهم: " اذكروا وقت أن صرفكم عنهم، حين أصعدتم في الجبل، أي ذهبتم منهزمين، وأنتم لا تلتفتون لأحد من الدّهش والخوف والرّعب، والحال أنّ الرّسول قد خلفتموه وراء ظهوركم، يدعوكم إلى ترك الفرار من الأعداء"[3].

6) ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾: فعل مضارع منَ الابتلاء، وهو الاختبار والامتحان، ومعناه: ليمتحن صبركم على المصائب، وقِيل: ليفعل في ذلك فعلَ من يريد الاختبار في الثّبات على الدّين في السّرَّاء والضّرَّاء[4].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يخاطب اللّه تعالى أصحاب النّبيّ ﷺ أنّه قد أنجزَ لهم ما وعدهم منَ النّصر على أعدائهم يوم أُحد، حين كانوا يقتلونهم قتلًا شديدًا في أوّل الأمر، فلمّا جبُنوا، وضعُفَت نفوسُهم، واختلفوا في البقاء في أماكنهم الّتي أمرهم بها النّبيّ ﷺ بعد أن لاح لهم النّصرُ، وشاهدوا الغنائم، انقسموا فريقين: فريقًا طلب الغنائم، وفريقًا ثبَت على أمر النّبيّ ﷺ، بعدم مغادرة مكانه، فلمّا كان ذلك تحوّل نصرهم إلى هزيمة؛ اختبارًا لهم، وتمييزًا للمؤمن الصّابر على البلاء من غيره، وأنّه تعالى قد عفا عمَّا وقع منهم منَ المخالفة؛ لأنّه ذو فضل عظيم على المؤمنين، بهدايتهم للإيمان، وعفوه عن سيئاتهم، وإثابتهم على مصائبهم.

لا نصر إلّا بطاعة الله ورسوله، ولا هزيمة إلّا بالاختلاف والتّنازع والعصيان

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نزع)، والرّاغب، المفردات: (نزع)، والمهدويّ، التّحصيل: 2/137.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/43، وابن منظور، لسان العرب: (صرف).
(3) الزّحيليّ، التفسير المنير: 4/127.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/427، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 5/94.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الفعل ﴿صَدَقَكُمُ﴾ بين التعدي بنفسه والتضمين:

تعدّى الفعلُ ﴿صَدَقَكُمُ﴾ هنا إلى مفعولين، فإمّا أنْ يكونَ على جوازِ تعديتِه إلى مفعولٍ واحدٍ، ونصبَ الثّاني بحذف حرفِ الجرِّ، وأصله (صَدَقَكُم اللّهُ في وعدِهِ)، فحذفَ حرفَ الجرِّ لإيصالِ الفعلِ إلى ﴿وَعْدَهُۥٓ﴾ بنفسه، فيكون أثرُ الفعلِ أوثقَ وأكثرَ تأثيرًا ممّا لو أوصلَه بحرفِ الجرِّ، وإمّا أنَّه تعدّى إلى مفعولينِ على تضمينِ الفعلِ ﴿صَدَقَكُمُ﴾ معنى أَعطى، لِيدلَّ الفعلُ على معنى تحقيقِ الوعدِ والإشعار بمنَّة إعطاءِ الوعدِ وتحقيقِه[1].

قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾ بينَ الإطلاقِ والتَّقييدِ:

وعد الله تعالى نافذٌ لا محالةَ

أفاد الإطلاقُ عمومَ صدقِ وعدِ اللّهِ، فلمّا جاءت ﴿إِذْ﴾ لِتكونَ قيدًا لِما قبلَها أفادَ المعنى تحقيقَ وعدِ اللّه في هذه الصورة المذكورة، والمعنى "وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللّهُ وَعْدَهُ إِيَّاكُمْ بِالنَّصْرِ حَتَّى فِي هَذِهِ الْوَقْعَةِ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ"[2].

مناسبةُ مجيءِ ﴿إِذْ﴾ في الكلام:

لمّا كانتْ ﴿إِذْ﴾ ظرفًا لِما مضى منَ الزَّمنِ وكانتْ مشعرةً بالتّعليل[3] كما في هذهِ الآيةِ دلّتْ على أنَّ قولَه ﴿تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ دليلٌ وحجَّة؛ لِتحقيقِ صدقِ وعدِ اللّه للمؤمنينَ.

مناسبةُ العطفِ في قوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾:

تـأكـيـد وعـد المستقبل بتحقّق وعد وقع

لمّا تقدّمَ إخبارُ اللّهِ تعالى بالوعيدِ بتحقيقِ الرُّعبِ في قولِه تعالى ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ [آل عمران: 151] ناسبَهُ الوصلُ بالإخبار عن صدقِ وعدِ اللّهِ للمؤمنينَ، والمقصودُ بالوعدِ ما تقدّمَ في

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 3/378، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/98، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/127.
(2) رضا، المنار: 4/150.
(3) ابن هشام، مغني اللبيب: 1/113.

قولِهِ تعالى: ﴿إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ﴾ الآية [آل عمران: 125]، ويحتملُ أنْ يكونَ وعدُه هو تحقيقَ إلقاءِ الرُّعبِ في قلوبِ الذين كفروا؛ لِتأكيدِ الأمرِ وتقريرِه[1].

تتابعُ التَّأكيدِ في قولِه ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾:

تقريرُ صدقِ وعدِ اللهِ للمؤمنينَ وتأكيدُه لِأهميَّتِه وللاعتناءِ بِهِ

تتابعَ على تقريرِ صدقِ وعدِ اللهِ تعالى تأكيداتٌ عدَّةٌ لأهميَّتِه وللاعتناءِ بِهِ ولتقريرِه في قلوبِ المؤمنين:

فقدْ أكّدَهُ بالقسمِ المحذوفِ المدلولِ عليهِ باللّامِ الموطّئةِ للقسمِ، وأفادتْ ﴿وَلَقَدْ﴾ باقترانِها بالفعلِ الماضي تحقّقَ الوقوعِ، كما أنَّ عودَ الضَّميرِ في ﴿وَعْدَهُۥٓ﴾ على الاسمِ الجليلِ (اللهِ) بمثابةِ تكرارِه؛ لِيقوّيَ التَّأكيدَ ويقرِّرَهُ، وفي إسنادِ الفعلِ إلى الذّاتِ العليّةِ؛ تعظيمٌ لِوعدِ اللهِ، وهذا فيه زيادةُ تطمينٍ للمؤمنينَ بتحقّقِ وعدِ اللهِ إيَّاهم.

نكتة التعبير بالفعل المضارع ﴿تَحُسُّونَهُم﴾:

لولا مخالفةُ أمرِ رسولِ اللهِ لَتحقَّقَ الوعدُ

لِإفادةِ استمرارِ القتلِ والاستئصالِ وتجدُّدِه حالًا فحالًا، ولِتصويرِ حالِ المؤمنينَ، وهمْ يُكثرونَ القتلَ في المشركينَ؛ لِلإشعارِ بأنَّ انتصارَهم كانَ مُحقَّقًا لولا ما وقعَ من مخالفةِ بعضِهم للأمرِ النّبويّ[2].

مناسبةُ التّعبيرِ بقوله ﴿تَحُسُّونَهُم﴾ دون (تقتلونهم):

الحَسُّ أبلغُ منَ القتلِ

لمّا كانَ الحسُّ يدلُّ على معنى القتلِ الذَّريعِ الشَّائعِ والاستئصالِ عبّرَ به دونَ أنْ يقولَ(تقتلونهم)؛ لِما في التّعبيرِ بـ﴿تَحُسُّونَهُم﴾ منَ الإشعارِ بقربِ تحقُّقِ وعدِ اللهِ وترقُّبِه، ولهذا أعقبَهُ بقولِه تعالى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾، أي كانَ الوعدُ محقَّقًا لولا ضعفُكُم وتنازعُكم ومعصيتُكم،

(1) النيسابوري، غرائب القرآن: 2/279، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 4/299.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/127.

ويؤيّدُهُ أنّ قولَه ﴿تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦٓ﴾ مشعرٌ بأنَّه في مقامِ الحجَّةِ والتّعليلِ لقولِه ﴿صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾ كما تقدّمَ[1].

دلالةُ الباءِ في قوله ﴿بِإِذْنِهِۦٓ﴾:

النّصرُ من عندِ اللهِ، وطاعةُ اللهِ ورسولِهِ من أهمِّ أسبابِهِ

أفادت الباءُ معنى ملابسةِ حسِّ المشركينَ إذنَ اللّهِ تعالى، فإنَّه لمَّا أسندَ الفعل إلى المؤمنين في قوله ﴿تَحُسُّونَهُم﴾ بيّن لهمْ أنَّ اللّه هو الذي مكَّنَهم من المشركينَ، وأنَّه كانَ بعلمِه وأمرِه.

مناسبةُ التّعبيرِ بصيغةِ الجمعِ:

الوعظُ لجميعِ المؤمنينَ، لِمَن خالفَ منهم، ومَنْ لم يخالفْ

جاءَتِ المخاطبةُ بجمعِ ضميرِ المُؤمنينَ في هذهِ الآياتِ، وَإِنْ كَانَ لمْ يَصدرْ ما يعاتَبُ عليهِ مِنْ جميعِهِمْ، وفيها فوائدُ، هي[2]:

1) لِتكونَ على سبيلِ التجوّزِ في نسبةِ ما يقعُ من بعضِهم لِلجميعِ، فَيكونَ منَ العامِّ المخصوصِ؛ اعتمادًا على المخصِّصِ بعدَهُ، وهو قولُه ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾، ولِقرينةِ الحالِ، لِيَخرجَ غيرُ المخالِفين منَ الخطابِ.

2) لتشمَلَ الوعظَ لِجميعِ المؤمنينَ، والزَّجرَ عن الفعلِ لِمَنْ لم يفعلْ.

3) لِتُفيدَ السَّترَ والإبقاءَ لمن خالفَ أمرَ رسولِ اللّه ﷺ ولاسيَّما أنَّ الخطابَ قد صُدِّرَ بالامتنانِ.

مناسبةُ التعبيرِ بـ ﴿حَتَّىٰٓ﴾:

لمّا كانتْ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ تدلُّ على انتهاءِ الغايةِ على سبيلِ التَّدريجِ والتّقضّي؛ لأنَّ الفعلَ المتعدّي بها الغرضُ فيه أنْ ينقضيَ شيئًا فشيئًا إلى أنْ يبلغَ منتهاه، أفادت تحسِّي المشركينَ شيئًا فشيئًا على سبيلِ التدرُّجِ واستمرارِه إلى وقتِ فشلِكم، كما يحتملُ أنْ يكونَ التدرُّجُ في صدقِ وعدِ اللّه، والمعنى صدقَكم اللّهُ وعدَهُ في أمورِكم، ومنه

(1) الزّجّاج، معاني القرآن: 1/478.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/524، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 2/280، والثّعالبيّ، الجواهر الحسان: 2/123.

نصرُكم على المشركينَ وكنتم ترونَ وعدَه شيئًا فشيئًا على وفقِ الحوادثِ واستمرَّ إلى وقتِ فشلِكم[1].

مناسبةُ حذفِ جوابِ الشَّرطِ:

الفشلُ والتَّنازعُ سببٌ في الانهزامِ وامتناعِ النّصرِ

﴿إِذَا﴾ شرطيّة، و﴿فَشِلْتُمْ﴾ فعلُ الشّرطِ، وجوابُ الشَّرطِ محذوفٌ، وتقديرُه انهزمتم، أو امتُحنتم، أو منعكم نصره، أو انقسمتم إلى قسمين، والتَّقاديرُ متقاربةٌ، وذهب بعضُ المفسّرين إلى أَنَّ حَذْفَ الْجَوَابِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْمَوَاضِعِ أَبْلَغُ وَأَدَلُّ عَلَى الْمُرَادِ، إذ تتزاحمُ على المخاطَبِ الظُّنونُ المعترضةُ للوعيدِ ما لا يتزاحمُ لو نَصَّ على الجوابِ؛ لِتذهبَ نفسُ السَّامعِ فيه كلَّ مَذهَب، حتّى كأنّه لا يُتصوّرُ شيءٌ في جزاء الشّرط إلَّا ويجوزُ أنْ يكونَ التّقديرُ فوقَه[2]؛ لتفخيمِ الجزاءِ وتهويلِ الأمرِ على المخاطبينَ، وللإيجازِ في الكلامِ، فحذفَ لطولِ الشَّرطِ أيضًا، وذهبَ بعضُ المفسّرينَ إلى أنَّ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ هنا مجرّدةٌ من الشّرطِ، فهي ظرفُ زمانٍ، ليكونَ المعنى (إذْ تحسّونَهم بإذنِه إلى حينِ فشلتُمْ)[3].

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلْأَمْرِ﴾:

حَـذْفُ المضافِ إليـه؛ لِـدلالـةِ السّياقِ عليهِ

إنْ كانَ الأمرُ في الآيةِ بمعنى (الشَّأن والقصَّة) فـ(أل) عهديَّةٌ، والمعنى تَنَازَعْتُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ مِنَ الشَّأْنِ، وإنْ كانَ بمعنى الأمرِ ضدِّ النَّهي، فتكونُ (أل) عِوضًا عنِ الضَّميرِ المضافِ إليه، بتقديرِ (تنازعتم في أمرِ اللّهِ أو في أمرِ نبيّكم ﷺ)؛ لِلإيذانِ بأنَّ أمرَ اللّهِ أو أمرَ رسولِ اللّه هو الأمرُ؛ لأهميّتِهِ ولِتعظيمِ شأنِه، لِما تدلُّ عليه (أل) حينئذٍ من معنى الاستغراقِ في صفاتِ الكمالِ، وذهبَ بعضُ المفسّرينَ إلى أنَّ التّقديرَ (أمرِكم) أي تنازعتم في أمرِكم، فتكونُ

(1) المرادي، الجنى الداني، ص: 544، والطيبي، فتوح الغيب: 4/301، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 2/99.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/387، والمرزوقي، شرح ديوانِ الحماسة، ص: 118، والإسفراييني، الأطول: 2/75.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 4/301، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/128.

(أل) عوضًا عن المضافِ إليه، وتكونُ (أل) عهديةً كذلكَ؛ لِلتّذكيرِ بما تنازعوا فيه[1].

نُكتةُ التّعبيرِ بقوله ﴿وَعَصَيْتُم﴾:

من شأنِ الحربِ الطّاعةُ للقائدِ

إنَّمَا سُمِّيَتْ مخالفةُ مَنْ خالفَ أَمرَ الرَّسولِ عصيانًا، معَ أَنَّ تلكَ المخالفةَ كانتْ عنِ اجتهادٍ لَا عنِ اسْتخفافٍ؛ لأَنَّ المقَامَ ليسَ مقامَ اجْتهادٍ، فإنَّ شأْنَ الحربِ الطَّاعةُ للقائدِ مِنْ دونِ تأويلٍ، أَوْ لأَنَّ التَّأويلَ كانَ بعيدًا فلم يُعذروا فيه، أَوْ لأَنَّهُ كانَ تأويلًا لإِرْضاءِ حُبِّ المالِ، فلمْ يكنْ مكافئًا لدليلِ وجوبِ طاعةِ الرَّسولِ[2].

دلالة التّرتيب بين الأفعال في ﴿فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم﴾:

الفشلُ والتّنازع مذمومانِ وهما سببٌ لِلمعصيةِ

قدّمَ في الآيةِ ذكرَ الفشلِ فالتّنازعِ فالمعصيةِ، فجاءَ ترتيبُها في الإخبارِ على وفقِ ترتيبِها في الحدوثِ، ولِلإشعارِ بعلّةِ ما سبقَ لِما بعدَه، فإنَّ القومَ لَمَّا رأَوا هزيمةَ الكفَّارِ، وطمعوا في الغنيمةِ فشِلوا في أنفسِهم عن الثَّباتِ وضعفوا، فتنازعوا بالقولِ هل نذهبُ لِطلبِ الغنيمةِ أم لا؟، ولمّا كانَ العصيانُ هنا بمعنى مخالفتِهم الأمرَ وخروجِهم من المكانِ الذي أُمروا أنْ يثبتوا فيه صار مرتَّبًا على الفشلِ والتّنازعِ مسبَّبًا عنهما، وهذا هو الأصلُ في ترتيبِ الأخبارِ في صناعةِ الإنشاءِ، وذهبَ بعضُ المفسّرينَ إلى أنّه عطفَ السَّببَ على المسبَّبِ في قوله ﴿فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ﴾، كما في قوله تعالى ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟﴾ [الأنفال: 46]، ولايُعدَمُ التلازمُ بينهما إذا اقتضتِ الحالُ العدولَ عن أحدهما إلى الآخر[3].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 7/289، والواحدي، الوسيط: 1/504، والرّازي، مفاتيح الغيب: 9/388، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/128.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/130.

(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/387 - 388، والنيسابوري، غرائب القرآن: 2/280، والبقاعي، نظم الدرر: 5/93، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/128.

دلالة ﴿مِّنۢ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ﴾:

بشارةٌ لِلصَّحابةِ المخالفين بزوالِ المخالفةِ

في دخولِ ﴿مِّنۢ﴾ التي لابتداءِ الغايةِ على ظرفِ الزّمانِ ﴿بَعۡدِ﴾ إشارتانِ لطيفتانِ[1]:

الأولى: لِتصويرِ المخالفةِ بأنَّها ابتدأتْ عقبَ رؤيةِ الظَّفرِ بالمشركينَ مباشرةً من غيرِ مهلةٍ، تأكيدًا للومِهم وتنديمِهم.

الثّانية: بشارةٌ لِلصَّحابةِ المؤمنينَ المخالفينَ بزوالِ المخالفةِ؛ إذ إنَّ ابتداءَ الغايةِ الّتي تدلُّ عليه ﴿مِّنۢ﴾ يستلزم انتهاءَها[2].

دلالةُ تعلُّقِ ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ﴾ بـ ﴿فَشِلۡتُمۡ﴾، وما نُسِقَ عليه:

الطّاعة سببٌ للنّصر، والمعصية سببٌ للهزيمة

يُشعرُ مجيءُ قولِه تعالى: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ﴾ بلَوم المخالفينَ وتنديمِهمْ على فعلِهم؛ إذ كانتْ رؤيةُ ما يحبُّونَ تستحقُّ منهمُ الطَّاعةَ لا المخالفةَ، كما يُشعرُ في الوقتِ نفسِه بأنَّهم كرهوا ما فعلوه لمقابلةِ الفشلِ والتَّنازعِ والعصيانِ بمحبَّتِهم لِما رأوه منَ النَّصرِ، فإذا كانوا يحبّونَ النَّصرَ فهم يكرهونَ الهزيمةَ ومسبِّباتِها، ففيه بشارةٌ بالعفوِ قبلَ ذكرِه في الآيةِ، وتمهيدٌ له[3].

مناسبةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ (ما) في قوله ﴿مَّا تُحِبُّونَۚ﴾:

مخالفةُ الرُّماة ليست لقصدِ مخالفةِ أمرِ الرّسول ﷺ

عبَّر بالاسمِ الموصولِ في قولِه ﴿مَّا تُحِبُّونَۚ﴾؛ لِلإشعارِ بالعمومِ، فيشملَ كلَّ ما رأوه منَ الأعيانِ والأحوالِ ممّا يحبّون، وليتوسَّلَ بالصِّلةِ إلى بيانِ سببِ المخالفةِ، أي ممّا يحبُّونه من الظَّفرِ والغنيمةِ وانهزامِ العدوِّ وغيرِها، وفيه إيماءٌ إلى أنّ مَنْ خالفَ مِنَ الرّماة قد عجِل في طلبِ شيءٍ محبوبٍ، وليستْ لِقصدِ مخالفةِ أمرِ رسولِ اللّه ﷺ[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/94، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/128.
(2) ابن يعيش، شرح المفصل: 4/459.
(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/388، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/128.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/379، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/43، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/129.

نُكتةُ التَّعبيرِ بقوله ﴿أَرَىٰكُم﴾:

عبّرَ بالفعلِ ﴿أَرَىٰكُم﴾، فجاءَ بالرؤيةِ القلبيَّةِ، وأسندَ الفعلَ إلى نفسِه سبحانَه وتعالى، ولم يقلْ (مِنْ بعدِ ما رأيتُم ماتحبّونَ)، فتكونَ الرؤيةُ بصريَّةً؛ لِلإشعارِ بأنَّ ما حصلَ أوّلًا مِنْ ظهورِ المؤمنينَ على الكافرينَ والظَّفرِ بهم إنَّما كانَ بفعلِ اللهِ وحُكمِه وأمرِه، وهو أمرٌ يعلمُه النَّظرُ قبلَ البصَرِ.

مناسبةُ الاعتراضِ في قولِه ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾:

جاءتِ الجملتانِ الاعتراضيّتانِ بينَ المعطوفِ والمعطوفِ عليه[1] لِمعانٍ هي[2]:

1. لمّا وردَ قولُه ﴿فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم﴾ على صيغةِ الجمعِ، وقد يُتَوهَّمُ أنَّ الخطابَ يشملُ جميعَ المؤمنينَ جاءتِ الجملتانِ الاعتراضيَّتانِ؛ لِدفعِ توهُّمِ ما يخالفُ المقصودَ؛ لِيكونَ تأكيدًا لإرادةِ الخصوصِ من ذلكَ العمومِ.

تأكيدُ إرادة الخصوص من العمومِ

2. أفادتِ الجملتانِ الاعتراضيَّتانِ توضيحَ ما أجملَ في قولِه ﴿وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾، فإنّ لإيضاحِ الشَّيءِ بعد الإجمالِ تأثيرًا في نفسِ المخاطَبِ لتوجُّهِ ذهنِه إلى طلبِه أكثرَ ممّا لو أتاهُ مِنْ غيرِ طلبٍ.

3. في الاعتراضِ تنبيهٌ للمخاطبينَ على أنَّ بعضَ المؤمنينَ يريدُ الدُّنيا بحبِّه لِلغنيمةِ وعجلتِه لِاستحصالِها.

حبُّ الدنيا لاينافي الإيمانَ ولكنَّهُ يُضعفُه

4. بدأَ بذكرِ مَنْ يريدُ الدُّنيا لِمجيئِه على خلافِ المتوقّعِ من المؤمنين، ولِيكونَ مناسبًا في الاقترانِ لِما ذُكِرَ قبلَه مِنَ اللَّومِ على المخالفةِ.

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 3/380، والسمين، الدر المصون: 3/437

(2) السبكي، عروس الأفراح: 1/618، والدسوقي، حاشية على مختصر المعاني: 2/730، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/359، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/129.

إيـــرادُ مـا هو من أبـدعِ بلاغة الإيـجـاز الـدالِّ على الإعجاز

5. أغنتْ الجملةُ الاعتراضيَّةُ الأولى عن أنْ يقولَ: منكمْ مَنْ فشلَ وتنازعَ في الأمرِ وعصى، فأغنى قولُه ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا﴾ عنْ ذكرِ ثلاثِ جُملٍ، ففيها مِنْ بلاغةِ الإيجاز ما يدلُّ على أبدعِ وجوهِ الإعجاز، والسِّياقُ قرينةٌ على المرادِ.

نكتةُ التَّقديمِ والتَّأخيرِ في قولِه ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾:

قدَّم المسنَدَ ﴿مِنكُم﴾ على المسنَدِ إليه ﴿مَّن﴾ في الموضعين؛ ليفيدَ الاهتمامَ فحسب؛ ليُشعرَ بأنَّ مخالفتَهم أمرَ رسولِ اللّه ﷺ على خلافِ ما يتوقَّعُهُ المؤمنون منهم، ولمّا ذكرَ القَسيمَ الأوَّلَ اقتضى أنْ يكونَ القَسيمُ الثَّاني على وفقِهِ ونسَقِهِ في التَّقديم والتّأخير لِبلاغةِ النَّظم، فلا تخصيصَ في التَّقديمِ هنا.

بديعُ التَّفريقِ في قولِه ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾:

التّفريقُ لبيانِ الـفـرقِ بين المـخـالـفـينَ والطّائعينَ

تضمَّنتِ الآيةُ فنًّا بديعيًّا هو التّفريق[1]، إذ فرّقَ في الوصفِ بين المخالفينَ لِأمرِ رسولِ اللّهِ والثَّابتين المحافظينَ على أمرِهِ ﷺ، معَ اجتماعِهما في وصفٍ أعمَّ هو الإيمانُ، لِلإشعارِ بتباينِهما، ولِيُفيدَ لومَ مَنْ يريدُ الدُّنيا ومدحَ مَنْ يريدُ الآخرة، كما دلَّ هذا التّفريقُ على أنَّ مَنْ يخالفُ أمرَ رسولِ اللّهِ ﷺ فلحبِّه للدُّنيا، ومَنْ يطيعُهُ فلحبِّه لِلآخرةَ.

دلالة ثمَّ في ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ﴾:

الـتّراخـي يـدلّ عـلى استبعاد الـهـزيـمـة، والـوثـوق مـنَ النّصر

تفيدُ ثمَّ معنى التَّراخي، ولمّا كان النّصرُ قاب قوسين من المؤمنين دلَّت ﴿ثُمَّ﴾ على أنَّ المؤمنين كانوا يستبعدون الهزيمةَ بعدَ ما رأوا من النَّصرِ والوثوقِ بِه[2].

(1) السّيوطيّ، شرح عقود الجمان، ص: 119.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/43، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 5/94.

بلاغة الاستعارة التَّمثيلية في قوله ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾:

يعامل الله تعالى عباده معاملةَ مَنْ يُمتَحَنُ ليُظهرَ لهم صبرَهم على البلاء من عدمِه

لمّا كان الابتلاءُ بمعنى الاختبارِ محالًا على اللّهِ تعالى؛ لأنَّ اللّهَ عليمٌ بما في السَّماواتِ وما في الأرضِ أفادَ الكلامُ المجازَ؛ ليكونَ استعارةً تمثيليَّةً، إذْ شبَّهَ صورةَ الهيئةِ الحاصلةَ منْ إصابةِ اللّهِ عبادَه وإيصالِه إليهم الذي يظهرُ به صبرُهم أو عدمُ صبرِهم بصورةِ الهيئةِ المنتزَعةِ ممّن يختبر إنسانًا في الأمورِ الشَّاقَّة ليعلمَ امتثالَه وطاعتَه له، فاستعمل قوله ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ في هذا المعنى، والمرادُ ليعاملَكم معاملةَ مَنْ يُمتَحَنُ ليُبيِّنَ أمرَكم، هل تصبرونَ على البلاءِ أمْ لا[1]؟

مناسبةُ التَّأكيدِ في قوله ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾:

جاء الكلامُ على خلافِ مقتضى الظّاهرِ؛ لاقترانِ الجملةِ بتأكيدينِ هما: اللّامُ الموطِّئةُ للقسمِ و(قد) المفيدةُ للتَّحقيقِ، مع أنَّ المخاطبينَ كانوا من المؤمنينَ، فلم يكونوا منكرينَ لعفوِ اللّهِ ليستلزمَ تأكيدَ الكلامِ بتأكيدينِ، ومناسبتُه أنَّه لمّا كانَ فعلُ المخالفين لأمرِ رسولِ اللّهِ أمرًا عظيمًا، ودلَّ عليه إثباتُ معصيتِهم، كانتْ نفوسُهم بمثابةِ المستشرفِ استشرافَ المتحيِّرِ في عفوِ اللّهِ عليهم، فساقَ الكلامَ هذا المساقَ؛ لبيانِ حالةِ المخاطبين، وأيضًا للإشعارِ بأنَّ حالَ المخالفينَ بعدَ ندمِهم على فعلِهم وتركِهم المركزَ الذي أمرَ به رسولُ اللّهِ ﷺ للرُّماةِ بمثابةِ الذي يئسَ منْ عفوِ اللّهِ عنه، فسلكَ هذا الأسلوبَ؛ لمناسبةِ المقامِ[2].

مناسبةُ مجيءِ العفوِ بعدَ الابتلاءِ:

تسكينُ خواطرِ المؤمنين بعدَ تقريعِهم

وفي ذكرِ العفوِ عقبَ الإخبارِ عنِ الابتلاءِ تسكينٌ لخواطرِ المؤمنينَ المخالفينَ، وفيه تلطُّفٌ معهمْ على عادةِ القرآنِ في تقريعِ المؤمنينَ،

(1) الخفاجي، عناية القاضي: 3/141، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/373.
(2) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 172.

كما يُشعرُ بالتَّحذيرِ منَ العودةِ إلى مثلِ هذهِ المعصيةِ، للإيذانِ بأنَّ القتلَ الّذي وقعَ في صفوفِ المسلمين لمْ يكنْ كافيًا في العقابِ المترتِّب عليها، حتّى احتاجَ ذلك إلى عفوِ اللّهِ تعالى عنْ مرتكبيها[1].

حُسنُ التَّذييلِ في قولِهِ ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

في مجيءِ جملةِ التّذييلِ فوائدُ هي[2]:

1. جاءتِ الجملةُ لتقريرِ مضمونِ ما قبلَها؛ ليكونَ على سبيلِ تقريرِ المعنى وتأكيدِه، فوعدُ اللّه بالنَّصر بشرطِه والابتلاءُ والعفْوُ كلُّه مِنْ فضلِ اللّهِ، ففي الابتلاءِ مِنَ اللُّطفِ بالمؤمنين ما لا يخفى بالنَّظرِ إلى مآلِه.

الابتلاءُ والعفوُ من فضلِ اللهِ

2. لمّا أخبرَ اللّهُ تعالى عن نفسِه أنَّه ذو فضلٍ أفادَ أنّه تعالى متفضِّلٌ على المؤمنينَ في جميعِ الأحوالِ، فشأنُه ووصفُه هو التّفضّل.

شأنُ اللهِ تعالى ووصفُه هو التَّفضُّلُ

3. أفادَ مجيءُ الوصفِ على أسلوبِ الجملةِ الاسميَّةِ دوامَ تفضُّلِ اللّهِ على المؤمنينَ واستمرارِه.

4. دلَّ مجيءُ الوصفِ مشتقًّا في قولِهِ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ على علَّةِ التفضُّل، فهو تعالى متفضِّلٌ عليهم ماداموا على وصفِ الإيمانِ.

5. إنَّ ذلكَ العفوَ الذي أخبرَ عنه في قولِه ﴿وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ﴾ بطريقِ التَّفضُّلِ والإحسانِ لا بطريقِ الوجوبِ عليه سبحانَه وتعالى.

العفوُ فضلٌ منَ اللهِ وليسَ واجبًا عليهِ

6. دلَّ تنكيرُ ﴿فَضۡلٍ﴾ على تفخيمِه وتعظيمِه، إذ وصفُ العظيمِ عظيمٌ.

فضلُ اللهِ عظيمٌ

7. لمّا كانتِ الجملةُ تذييليَّةً، وكانتْ تفيدُ العمومَ والكليَّة؛ لتكونَ كالمثلِ في مجاري الكلامِ كانَ المرادُ بالمؤمنينَ العمومَ؛ لتكونَ (أل) جنسيَّةً، ويدخلَ فيه المخاطبونَ بالعفوِ دخولًا أوَّليًّا، ويُحتمَلُ أنْ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/381، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/130.

(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/389، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 2/99، والآلوسّي، روح المعاني: 2/303.

يكونَ المرادُ هُمُ الصحابةَ المخالفينَ، وتكونَ (أل) عهديَّةً، ويندرجُ فيهم المؤمنونَ جميعًا، بقرينةِ المقامِ.

8. إنْ كانَ المرادُ من قوله ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ المخاطبينَ وقتَ نزولِ القرآنِ كانَ إظهارُ الاسم في موضعِ الإضمارِ؛ لِتشريفِهم ولِبيانِ أنَّ علَّةَ الحكمِ بالعفوِ عنهم هي فضلُ اللّٰهِ عليهم.

9. أفادَ مجيءُ حرفِ الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ الاستعلاءَ المعنويَّ؛ لِيُفيدَ استيعابَ فضلِ اللّٰهِ على جميعِ المؤمنينَ.

10. أفادَ وصفُ المخاطبينَ بالإيمانِ أنَّ مخالفةَ أمرِ رسولِ اللّٰهِ وإنْ كانَ من الكبائرِ لكنَّه لا يُخرجُ المؤمنَ من الإيمانِ.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس، سورة آل عمران من الآية 141 إلى الآية 23 من سورة النساء
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة آل عمران من الآية 141 إلى الآية 23 من سورة النساء [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 6 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-58-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 6 : سورة آل عمران من الآية 141 إلى الآية 23 من سورة النساء.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-58-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-2475776 بتاريخ 2023/03/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»